

البَابُ الْخَامِسُ

التلاميذ

« العلم شيء لا يعطيك بعضه حق
تعطيه لك ، وأنت إذ تعطيه لك
من إعطائه البعض على غرر » .
(أبو يوسف)

آلت إلى أبي حنيفة رئاسة الحلقة وهو في الأربعين بعد أن ظل عاكفاً على أستاذه قرابة عشرين عاماً سبقتها دراساته ورحلاته ، فإذا علم تلاميذه علمهم بالحكمة والموعظة الحسنة : وإن أول ما يعظهم به هو ذاته ، ولقد أخذ نفسه بالدرس العميق قبل أن يتعرض للإفتاء . فليأخذهم بما أخذ به نفسه من التحصيل الذهني والاستعداد الروحي :

مرض أبو يوسف مرضاً أشفق عليه منه فكان يتعهده حيناً بعد حين ، وسار إليه آخر مرة فراه مقبلاً بعد أن أبلى فرجع ثم قال : « كنت أؤملك للمسلمين ولئن أصيب الناس بك ليموتن معك علم كثير » . فلما بلغ الكلام أبا يوسف ارتفعت نفسه وعقد لنفسه حلقة خاصة وقعد عن مجلس أبي حنيفة ، وقصد إليه الناس يتحلقون حوله . وافتقده الشيخ فعلم جملة الخبر : فطوى السنين القهقري واسترجع الذكرى . نشر صفحات حياته الأولى فبدت له نفسه في نحو الثلاثين في ضحوة العمر . والدهر صفو والزمان غلام ، يوم غره الغرور فتخيل ثم خال ، فعزم الفصال من أستاذه . وذكر أنه نكر نفسه وأوجس خيفة يوم ذلك فقعد من حماد مقعده السابق سنوات جديدة . لم يكن بعدها أغنى عن التعلم منه قبل .

هنالك علم أن التاريخ يعيد نفسه ، فلم يتخل عن تلميذه ، ودعا إليه صديقاً سيره إليه يحمل الرسالة الآتية :

اذهب فقل ليعقوب ما تقول في رجل دفع إلى قصار (وهو الخياط الذي يقصر الثياب) ثوباً ليقصره بدينهم . فصار إليه بعد أيام يطلب الثوب فأنكره . ثم إن صاحب الثوب عاد بعد أيام يطلب الثوب ثانية فردده إليه مقصوراً فهل له أجر ؟ فإن قال له أجر قل أخطأت : وإن قال لا أجر له قل أخطأت .

وكان يعقوب في صباه يعمل عند قصار صبيّاً (وكان أبوه على ما قيل خياطاً) ولعل هذا سر اختيار السؤال . فإذا عجز الأستاذ الحدث عن

الجواب في مسألة له بها من كل ناحية عهد ، فتعساً للعلم الذي يدعيه :

ومشي الرسول بحث الخطي إلى الأستاذ النجيب ، وأخذ الأستاذ يجيب ، قال له أجره : قال أخطأت . فأطرق ملياً ثم قال لا أجره له : قال أخطأت . وعميت الأنباء على الفتى فأبلس ، وأسر الندامة لما رأى الخطأ : : وانطلق من مجلسه انطلاق السهم إلى الرمية إلى حيث ملاذه وأستاذه .

قال أبو حنيفة : أظن ما جاء بك إلا مسألة القصار .

قال أبو يوسف : بلى :

أبو حنيفة : سبحان الله ! من قعد يفتي ، وقعد مجلساً يتكلم في دين الله وهذا قدره ، لا يحسن أن يجيب في مسألة من مسائل الإجازات !!

أبو يوسف : يا أبا حنيفة علمني :

أبو حنيفة : إن كان قصره بعد ما غصبه فلا أجره له لأنه قصره لنفسه ، وإن كان قصره قبل أن يغصبه فله الأجره لأنه قصره لصاحبه .
أبو يوسف : !!

أبو حنيفة : من ظن أنه يستغنى عن العلم فليكن على نفسه . . ؟ !

وبكى أبو يوسف على نفسه مدراراً وعاد إلى الحلقة بعد أن ذاق وبال أمره . ولو لم ينس الشيطان لتذكر ما ذكره أبو حنيفة : « اعلم أن العمل تبع للعلم ، كما أن الأعضاء تبع للبصر ، والعلم مع العمل اليسير أنفع من الجهل مع العمل الكثير ، ومثل ذلك الزاد القليل الذي لا بد منه في المفازة مع الهداية ، أنفع من الجهالة مع الزاد الكثير » أو قوله : « من تكلم في شيء من العلم ونفده وهو يظن أن الله تعالى لا يسأله عنه كيف أفتيت في دين فقد سهلت عليه نفسه ودينه » ، وقوله : « من طلب الرياسة في غير حينه لم يزل في ذل ما بقي » ولذكر قول النبي عليه الصلاة والسلام : « لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ولا لتحتازوا به المجالس فن فعل ذلك فالنار النار » :

ولما تقدم حماد بن أبي حنيفة يوماً ليصلي بالناس أخذ أبوه بجماع ثوبه فأخذه ، وقدم غيره ، فقال حماد : يا أبت تفضخني ! قال : « بل أردت أن تفضح نفسك فمنعتك إذ لو صليت فقال قائل أعيذوا صلاتكم خلف هذا فسطر في الكتب ويبقى عاره إلى يوم القيامة ! » :

ولما أخذ يعلمه وجهه إلى دراسة علم الكلام حيناً ثم صرفه عنه فجاده حماد بقوله : « ألسنت كنت تأمرني به » . قال : « بلى وأنا اليوم أنهاك عنه » ، قال « ولم ؟ » قال « يا بني إن هؤلاء المختلفين في أبواب الكلام ممن ترى كانوا على قول واحد ودين واحد حتى نزع الشيطان بينهم فألقى بينهم العداوة والاختلاف » ، ثم قال : « كنا نجتمع وكأن الطير تحفق على رؤوسنا . . وقد بلغني أن قوماً يتكلمون اليوم فيضحكون من الكلام . . وإنما همّة أحدهم أن يظفر من صاحبه بشنعة يشنع بها عليه فإذا بلغ الكلام هذا الحد ، فتركه خير » . وفي عبارة أخرى من عباراته : « كنا نناظر وكأن على رؤوسنا الطير مخافة أن يزل صاحبنا وأنتم تناظرون وتريدون زلة صاحبكم » .

وإذا كانت هذه نظرة أبي حنيفة إلى العلم وأهل العلم وهذا إنصافه للعلم من نفسه ومن ولده . فهل يترك تلميذه ليتصدر مجلس العلم من غير علم .

كلا : بل إنه ليضيف يداً إلى أياديه عليه فيهديه . ويجادله بالتي هي أحسن ، لا بقوارص الكلم ، ولا بمواجهة ثقته في نفسه مواجهة المستزري لذاته ، أو دراساته ، ولكن بأن يبسط قدر علمه بين يديه . ليكون في حكمه على نفسه الحكمة وفصل الخطاب :

ولقد كان هذا الصنيع الذي صنعه أبو حنيفة على يد الرسول لفئة الأستاذ الموفق يهدي فتاه ، فلو أفلت منه زمام التدبير أو التعبير يومئذ ، لكان محتملاً أن يركب التلميذ رأسه فلا يهتدى ، وما كان أقرب هذه من تلك لو كان الشيخ فظاً غليظ القلب ، ولم يكر بتلميذه ذلك المكر الجميل :

وما أعظم ما يؤتى حسن التعبير من ثمرات : رأى بعض الملوك كأن أسنانه سقطت فعبها له معبر بموت أهله وأقاربه فأقصاه وطرده ، واستدعى آخر فقال له

تكون أطول أهلك عمراً فأعطاه وكرمه وقربه . .

عاد أبو يوسف إلى الحلقة بعد أن تعلم في هذا الدرس جماع علومه فأضحى يقول : « العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، وأنت إذ تعطيه كلك ، من إعطائه البعض على غرر » .

ذلك مثل من بر الشيخ بتلاميذه وبالعلم . ولو حاولنا أن نستقصى مظاهر هذا البر لكننا كمن يحاول أن يحصى نجوم السماء .

. . .

كان قد أدبهم بالعلم وبالقدوة ، وبفن آخر هو الطريقة المثلى للإقناع هو الذى يحدث الجرس الأخاذ ، والرنين النفاذ ، ويحيل الصعاب بسائط . . هو تقديم العلم في وعاء من الحب ، وخروج الكلام من القلب إلى القلب ، واستيلاء المتحدث من فوره على الروح .

وليس يستطيع ذلك إلا من كانت لديه روح من الطراز الرفيع في طاقها أن تبعث إلى أنفس الناس شعاعاً دافئاً دافئاً كأنه الكهرباء :

قال الحسن البصري للواعظ الذى نفرت نفسه من كلامه : « يا هذا . . إن بقلبك لشرّاً أو بقلبي » :

وغمرت أسلوب الأستاذ سماحة النفس . كما تجلت في مناهج الدرس فسيطر على تلاميذه بالقصد والترفق ، والصبر والترفيع ، فلم يكن يؤكل في حلقة لحم الصديق ولا لحم الخصم . وسما عن مناوأة خصومه إلى الاستغفار لهم ، فبك ألباب تلاميذه وبهر أبصارهم ، وأفهمهم أن العلم والمحبة صنوان يسقيان من ماء التسامح ، وأن المؤاخاة فيهما أدنى إلى الهدى من الملاحاة ، وأن الغيبة قذف في السامع قبل أن تكون قذفاً في الغائب ، وأنها على كل حال لعنة على المختاب .

وتواضع الأستاذ لله فرفعه في أعين الناس وتلاميذه ، وبصروا منه بما يبصر به المقربون ، وظفروا عنده بما لا يظفر به البعداء . وأعزهم الله به وأعزه بقرباهم و « لا وحدة أوحش من العجب » كما قال عليه الصلاة والسلام .

قال عبد الله بن المبارك : قلت لسفيان الثوري يا أبا عبد الله ما أبعد أبا حنيفة

عن الغيبة — ما سمعته يغتاب عدوًّا له ! قال : هو أعقل من أن يسלט على حسناته ما يذهبها !

قال له قائل : يتكلمون فيك ولا تتكلم في أحد ! قال : « هو فضل الله يؤتيه من يشاء » .

ومن بعد ذلك بيضع قرون قال الحكيم الفرنسي لا برويير : « إن التواضع بالنسبة للشخصية كالظلال بالنسبة للصورة توضحها وتظهرها وتجاهاها » .

ولما سئل الفارابي : « أنت أعلم أم أرسطو؟ » قال : « لو أدركته لكنت أحسن تلاميذه » وقال : « قرأت السماع لأرسطو أربعين مرة وأرى أني أحتاج لمعاودته » .

قيل لأبي حنيفة اتق الله . فانتفض وطأطأ رأسه ثم قال : « يا أخى جزاك الله خيراً ، ما أحوج الناس في كل وقت إلى من يذكرهم الله تعالى وقت إعجابهم بما يظهر على ألسنتهم من العلم حتى يريدوا الله تعالى بأعمالهم » .

ولم يدخل عليه داخل وخاض في حديث الناس إلا قطع عليه خوضه . . . وكان يقول : « إياكم ونقل ما لا يحبه الناس من حديث الناس ، عفا الله عن قال فينا مكروهاً ورحم الله من قال فينا جيلاً . تفقهوا في دين الله . وذروا الناس من حديث الناس وما قد اختاروا لأنفسهم » .

قيل له هذا الذى تفتينا به هو الصواب بعينه . قال : « ما أدري عسى أن يكون الخطأ بعينه » .

وقال يهذب تلميذه يوسف السمى قبل خروج يوسف إلى البصرة : « . . . ومن مرض من إخوانك فعده بنفسك وتعاهده برسلك . . . ومن تكلم فيك بالقبيح فتكلم فيه بالحسن الجميل . . . وأفش السلام ولو على قوم لئام » ثم كشف له عن السحر الذى يسحر به الفقيه مناظريه قال : « ومتى جمع بينك وبين غيرك مجلس ، أو ضمك وإياهم مسجد . وجرت المسائل أو خاضوا فيها بخلاف ما عندك لم تبلهم منك خلافاً ، فإن سئلت عنها أخبرت بما يعرفه القوم ثم تقول : فيها قول آخر هو كذا وكذا والحجة له كذا ، فإن سمعوه منك عرفوا مقدار ذلك ومقدارك ، فإن قالوا هذا قول من ؟ قل بعض الفقهاء ، فإذا استمروا على ذلك أبو حنيفة

وألفوه ، عرفوا مقدارك وعظموا محلك : وإياك والحقد وإن غدروا بك ، وأد الأمانة وإن خانوك » :

قال أبو يوسف : كان رحمه الله يغتم لمن يشكره على شيء أعطاه إياه : ويقول اشكر الله تعالى فإنما هو رزق ساقه الله إليك .

كان هذا الخميص الصائم الذي لا تجدد في داره إلا البواري يفرق أمواله بين التلاميذ وأشباه المحدثين ، ويبعث البضائع إلى بغداد فيشتري الأمثلة ويجمع الأرباح ليشتري بها حوائج المتعلمين ، يقوتهم ويموّنهم ، ثم يدفع إليهم الدنانير قائلا : « أنفقوا في حوائجكم ولا تحمدوا إلا الله سبحانه وتعالى فإنها أرباح بضائعكم ، مما يجربه الله لكم على يدى . . »

• • •

فلنختصر في السرد ولنذكر عنان الحديث لأبي يوسف حيث يقول :
« كنت أطلب الحديث والفقه وأنا رث الحال ، فجاءني أبي يوماً وأنا عند أبي حنيفة فأنصرفت معه فقال لي : يا بني لا تمدد رجلك مع أبي حنيفة فإن أبا حنيفة خبزه مستو وأنت تحتاج إلى المعاش : فقصرت عنه كثيراً في الطلب وآثرت طاعة أبي . فتفتقلت أبو حنيفة وسأل عني فجعلت أتعاهد مجلسه ، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخرى قال : ما شغلك عنا ؟ قلت : الشغل بالمعاش وطاعة والدي : فجلست . ولا انصرف الناس دفع إلى صرة وقال : استمتع بها فإذا فيها مائة درهم . وقال لي : الزم الحلقة فإذا فرغت هذه فأعلمني : فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع إلى مائة أخرى ، ثم كان يتعهدي وما أعلمته بخلة قط ، ولا أخبرته بنفاد شيء ، وكأنه كان يخبر بها حتى استغنيت وتمولت » .

كان أبو يوسف في نضارة الشباب حين وقعت هذه الوقائع . جاء إلى الحلقة تاركاً حلقة محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى . وقد قصصنا من قبل بعض آثاره .

ولا روى أبو يوسف هذه الوقائع كانت قد اجتمعت لديه أسباب الجهد جميعاً : العلم الدنيوي ، والعلم الدينوي ، وأموال تكاد لا تحصى ، ووظيفة

دونها الوزارة ، وصداقة شخصية مع هارون الرشيد .

فلنرجع البصر إلى روايته مستقرئين : فأبو حنيفة كان يدرك بعقله ويلتزم بفعله ، حديث رسول الله : « لا حسد إلا في اثنتين ، رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها » وبهذين الحكمة والمال راح يتحدى الحسد ، فيمنح المال في سبيل الخير ويقضي بالحكمة ويعلمها ، منحاً ليس له أول ولا آخر ، وتعلماً يكاد تضيق عنه حدود هذا الوجود .

وأبو حنيفة كان صاحب مال يفنيه بالسخاء ، أرحمياً مرهف الحس ، يدرك وحى العين ودخائل النفس . يعطي من فوره ، ويعطي في الميعاد ، وقدماً قال الحكيم العربي : « خير الخير أوجاه » . وأقدم منه قول الرومان : « إن من يعطي فوراً يعطي مرتين » . والبدار في ذاته فضل . ثم هو يعطي في غيبة الناس فلا يشهد على العطاء إلا نفس صاحبه ، في أناقة مظهر تسمو بمن يعطيه عن مهانة الابتذال .

وأي رشاقة كرشاقة اليد العليا وهي تدفع المال إلى اليد الأخرى دون رنين أو التماع . فتقدمه في صرة لا صوت لها ولا بريق منها يزعج الأعصاب ، في إسماع يسكر البصر . كل أولئك وهو مع تلميذ له لا بأس عليه إن هو خلع ثياب التخرج من شأنه . لكن القريب عنده كالغريب ، وكذلك الذي ترك له خمسة الآلاف درهم حتى لا يرى عليه ذل استلامها ! وكذلك الجليس صاحب الثوب الخلق ، وذلك المدين الذي لا يجلس في ظلاله ! يصنع الصنيع دائماً في استخفاء وعلى استحياء ، وفي تلطف كتلطف الملتصق . يقطع بأنّها السليقة المطبوعة لا السجية المصنوعة ، فإذا شكر أنكر الشكر ونقله إلى شيخه حماد .

قال أبو يوسف : « وكان يعولني وعيالي عشرين سنة وإذا قلت له ما رأيت أجود منك ، يقول : كيف لو رأيت حماداً ، وما رأيت أجمع للخصال المحموده منه » .

وأبو حنيفة يدرك مزية الاتصال الشخصي بين الأستاذ ورواده .

قال لأبي يوسف ينصحه : « وأقبل على متفقهتك كأنك اتخذت كل واحد منهم ابناً وولداً لتزيدهم رغبة في العلم » وتلك النصيحة هي الصنيع الذي طفق يصنعه طوال حياته ، لا ينفك يسأل عن المريض من تلاميذه حتى يبرأ ، وعن الغائب حتى يرجع . وعن غير المريض وغير الغائب ، لم يعرف عنه أنه اختص ولده حماداً بعطف كما اختص تلاميذه ، قال عصام : « لم يكن لأحد من الحق كما لأبي حنيفة على أصحابه ، وكان الذباب إذا وقع على أحد منهم يرى مشقة ذلك على نفسه » .

والذي صنعه مع أبي يوسف في مرضه والذي صنعه معه لما جلس للفتيا ، لم يك إلا أمثالا ميمونة العواقب : ففي واحدة شد أزر فتى كان يومه يبشر بغده . وفي الأخرى دعاه إلى الاستزادة من العلم ، فألقى منه بسطة سميت به إلى أرفع الدرى بين أئمة الفقه عامة . ولقد طالما قدر أبو يوسف له هذه اليد بقوله : « إني لأدعو له قبل أبوى وسمعتة يقول إني لأدعو لحماذ مع أبوى » .

هكذا كان أبو يوسف يقدمه على أبويه في حين يسوى أبو حنيفة بين أستاذه حماد وبين أبويه . وكلاهما على الإنصاف : لأن أبا حنيفة علمه على رعم أبويه ، وعلى النحو الذي كان يدركه أبو يوسف بقوله : « نغمد الله أبا حنيفة برحمته . وجازاه خيراً ، فإنه أطعمنى الدنيا والآخرة إطعاماً » .

ولئن كان أبو يوسف قد أعلن حديث عطاءه إن الحديث نفسه ليشى بمقدار ما كان يتوخاه من إخفاء — والوقائع التي سردنا من قبل تنم عنه وتقرره — فكمن من التلاميذ لم يعلنوا أياديه . . لقد أعلنها الحسن بن زياد إذ كان يلزم أبا حنيفة وأبوه يرهقه بقوله لنا بنات وليس لنا ابن غيرك فاشتغل بهن ، وكان أبو حنيفة يدر عليه أخلاف الرزق حتى تعلم ، وأعلنها يوسف ابن خالد السمى . واجتمعت كلمة الرواة على أنه كان يصبر على من يعلمه وإن كان فقيراً أغناه وأنزل عليه وعلى عياله صيباً من العطاء حتى يتعلم ، فإذا تعلم قال له : قد وصلت إلى الغنى الأكبر بمعرفة الحلال والحرام . وأجمعوا

أنه كان معروفاً بالإفضال على كل من جمعته به الأسباب . ورواية أبي يوسف تحدثنا أنه كان يفعل الفعال النابه مراراً ، ويسره إسراراً ، غير ممنون ولا مجذوذ ، ولا مصدر ، مما لا ينفع الغلة .

ولو جاءه المال عن أبيه أو جده أو من أعطيات الأمراء لكانت له درجة فضل ، ولوقع أجره على الله . لكن أرفع درجات الفضل أن يجمع الرجل المال بشق النفس ويؤتيه بنفس راضية من يشاء . ويزيده سموّاً أنه لا يوزعه صدقة يطمع بها في ثواب الآخرة ، بل يدفعه للناس على أنه وجه أولى من غيره بالإتفاق ، وسبيل صالحة لعمارة الدنيا بالعلم . فالإنسانية العليا هي المبدأ والمنتهى . والأمل المشتهى . لا حسن ثواب الدنيا . ولا حسن مأب الآخرة .

ويرتفع الفضل إلى سماء ما طاولتها سماء إذ يصنعه صاحبه ليتمكن الذين أعطاهم من أن يتلقوا منه عطاء آخر دونه كل ذلك العطاء المالى أو المادى . نعى به العلم الذى علمه هؤلاء التلاميذ .

هذه الوقائع ترسم أمامنا خطوط الظاهرة الأولى في حياة أبي حنيفة . وحى قيام مدرسة كبيرة منظمة ، كان ممولها وصاحبها مثلما كان أستاذها . يتحمل أعباء تلاميذها المالية مثلما يتحمل أعباء تعليمهم وتهذيبهم ، ويسوى بينهم وبين ولده في الإتفاق وفي التهذيب ، في إخلاص للعلم كأنه العبادة .

جاء إليه رجل بكتاب شفاعته ليحدثه فقال : « ما هكذا يطلب العلم ، قد أخذ الله الميثاق على العلماء لبيئته للناس ولا يكتُمونه . لا يكون العالم له خواص . لكنه يعلم الناس ويريد الله بتعليمه » .

ولا يعرف التاريخ أن أبا حنيفة خلف من بعده مالا غير مارد للناس من ودائعهم . فهو العليم بأن ثروة المفكر هي الفكر ، فإذا خلف المفكرون من بعدهم أفكاراً فقد أنجبوا ، أما ما يخلفون من عروض وأموال فهي كسائر ما يخلف الموق من العروض . تتناهى في النقصان قدر ما تتناهى في التداول والتعامل . وأما الفكرة فهي النور تتناهى في الانتشار كلما تداولتها الأنفس ، وتتناهى في الازدهار كلما أرققها الأذى ، فلا على صاحب الفكر

إذا هو أغنى الدنيا من بعده وأفقر أولاده ، فالدنيا كلها ولد له . ولو رحت تسأل ماذا ترك الأنبياء لأولادهم من المال ، فقد أجاب عليه الصلاة والسلام بأنهم معاشر الأنبياء لا يورثون ، وأن ما يتركونه صدقة للعالمين ، فإذا سألت عن تجمي مراتبهم بعد هؤلاء من الملوك والقادة والمفكرين شعرت بالشلوذ في السؤال .

إنما يبقى الفكر ، ويبقى الذكر ، والفكر والذكر لا يفنيان كما يفنى المال ويزول ، وإن حفل بالمال جيل فلن تحفل به الأجيال الأخرى ، إلا كما حفلت بالملايين وملايين الملايين من الناس بعد إذ تطبق عليهم أجنان الثرى ، إنما الفكرة شيء إلهي فهي كائن حي لا يموت . وهي الجوهر الحر الذي يورث . ويدفع الضريبة عنه الموتي والأحياء على السواء — ولا يخلد الفكر إلا فكرته ومن اعتنقها من الأشياء والأتباع ، ولهذا كان تلاميذ أبي حنيفة قطعاً من نفسه ، ربط بينها وبينهم كماربط بينها وبين أستاذة في شجرة النسب العلمي يذكرهم مع أصوله وأستاذة كلما مثل بين يدي ربه . قال : « ما صليت صلاة منذ مات حماد إلا استغفرت له مع والدي وإني لأستغفر لمن تعلمت عليه علماً ، ومن علمته علماً » .

قال له صاحبه وقد رأى بيته عريان إلا من البواري . وهو هو الذي يوزع الدنانير آلافاً مؤلفة . وتعرض عليه أسباب المجد فيصدف عنها . قال صاحبه : لك عيال ، قال : الله تعالى للعيال . . وإنما قوتي أنا في الشهر درهمان . . ثم قرأ : (وفي السماء رزقكم وما توعدون) .

* * *

أما الظاهرة الثانية فهي أن الرجل الكبير يعني ، أول ما يعني ، بأن يبنى الرجال الكبار . ومن الزعماء من يؤثرون أن يخلفوا الرجال على أن يؤلفوا الكتب . وفي تاريخ الحقبة الحديثة خلد جمال الدين الأفغاني بغير مؤلفاته ، وبتلاميذ سموا إلى أرفع ذرى المجد في ميادين الكفاح كالسيد عبد الرحمن الكواكبي . كما كان محمد عبده في الإصلاح الديني ، وسعد زغلول في الإصلاح السياسي ، وإبراهيم الحلباوي في المحاماة ، مع قليل من الرجال والمؤلفات ، هي السجل الذين حصر

التاريخ فيه تركة الزعيم الفكرى العظيم الوارد من الأفغان أو من إيران ، ورود آباء الإمام الأعظم .

ولأن بينى الرجل الكبير رجلا كبيراً خير على الوجود البشرى من كل آثاره ، فكيف إذا بنى رجلا كباراً عظماء .

فلعل النفس الإنسانية خير ما عبرت به يد القدرة الإلهية عن الله سبحانه . والرجل الصالح بينى الممالك وقيم المذاهب ويشرع الشرائع ويبنى الرجال من جديد . .

إن من الرجال من كان أجلى على الإنسانية من إحدى القارات الخمس .

لقد كان أبو حنيفة ملهماً عندما احتضن أبا يوسف ومحمداً وزفر والحسن وباقي الجماعة وورثهم من نفسه وعلمه ما ورثهم ، فى جهد يوى متصل ، يهدف إلى غاية كبرى ، تتجمع عندها أهداف كل يوم ، وكل تصرف ، كما تتجمع الفروع وتتلاقى ينباع فى النهر الجارى ، فيربو الوشل ، وتصيح الحففات من الماء فيضائاً زائحاً كالسيل العرم ، تزحم البحر وتعان وجودها فى أجلى مجاله !

بهذا استطاع الرجل المفرد أن يصبح أمة وحده ، وأن يجعل من الضعف الإنسانى قوة عارمة ، ومن العمل الفردى عمل فيلق ، ومن الجهد اليوى جهد زمان ، وبهذا أحدثت الضجة الفردية طينياً فى سمع التاريخ وأنغماً فى فم الزمان .

بهذا بلغت مدرسة أبى حنيفة أوجها ومهدت لها الدولة الجديدة ، فإذا بالمدرسة تخرج الحكام الكبار باسم القضاة ، فيضعون أيديهم على مصابير التشريع الإسلامى فى شتى بقاع الدولة . وغدت الأسماء التى تلونها قبل ، يتحلق أصحابها حول الشيخ . سجلا بأسماء القضاة الكبار والفقهاء الفحول . وبدأت حركة التدوين على طراز الإنتاج الضخم الذى بدأه محمد فى كتبه وجرى على غراره الحسن بن زياد ومن تبعهما فأذاعوا فضل المدرسة فى الزمان كله ، وإذا بالمدرسة تخرج نساكاً وزهاداً إلى جوار الحكام . فربط التلاميذ كالأستاذ بين العلم والدين والدنيا ، وأكدوا للناس أن الفقه يهب سعادة الدارين لمن يشاء . وبها لها من يد على العلم : أن يتخذ سبيلاً إلى السعادة فى الدنيا ، لا تبتلا محضاً أو رهبانية خالصة ! وبهذا أقبل الناس

على ازياده في سبيل الله ، ومن أجل الحياة ، مدفوعين بالدافع الرباني والدافع الإنساني معاً .

استمرت المدرسة بعد وفاة المدرس . فتولاها تلميذان كانا من الدولة الإسلامية في أزهى عصورها حضارة ، أعظم رجالها جدارة . نعى بهما أبا يوسف ومحمد بن الحسن . وتبعهما بقية الرهط وتلاميذهم . فأضحوا في عين الدولة وأعين الناس . اتجاهاً فكرياً جديداً هو الاتجاه المفرد الجدير بالإسلام .

* * *

كان العناية الإلهية قد كشفت لأبي حنيفة القناع عن وجه المستقبل حين استشار أبا يوسف في قبول وظيفة القضاء ونصحه أبو يوسف بالقبول فقال له أبو حنيفة : « لكأنى بك قاضياً ! » وهى النبوة التى قال عنها الرشيد فيما بعد : « لعمري إن العلم يرفع دنيا وديناً » وترحم على أبي حنيفة ثم قال : « كان ينظر بعين عقله مالا يراه بعين رأسه » .

كان أبو يوسف في السابعة والثلاثين عندما توفي أستاذه كما كان أرسطو في السابعة والثلاثين إذ مات أفلاطون ، ولم يرأس أبو يوسف الحلقة كما لم يرأس أرسطو مدرسة أفلاطون ، وإذا كان الغضب قد ملك أرسطو لذلك . فإن رئاسة زفر للحلقة بعد أبي حنيفة لم تغضب أبا يوسف ، لما كان عليه زفر من العبادة والورع والتكريم في حلقة أبي حنيفة .

تولى أبو يوسف القضاء للخلفاء الثلاثة المهدي والهادي والرشيد ، وبلغ مجده أوجه في عهد الرشيد إذ نقلت له عن النظام الفارسي وظيفة قاضي القضاة أو عالم العلماء (موبدان موبد) . كان هو الذى يوصى الخليفة بتعيين القضاة في شتى أرجاء الدولة ، وكان يؤاكلة ويحج معه - عدلا له على يعبر - ويؤمه ويعلمه . ويدخل عليه راكباً بغلته فيستقبله الرشيد بالنشيد « جاءت به معتمجرا بيرده » وكانت تتقدم به المنزلة كلما تقدم به العمر .

كان معه كأرسطو مع الإسكندر ، تلميذين في عمر الورود لأستاذين في خريف العمر . كتب له في كتاب الخراج يقول : « وقد كتبت لك ما أمرت وشرحت لك وبينته فتفقهه وتدبره وردد قراءته حتى تحفظه ، فإنني قد اجتهدت

لك في ذلك ولم آلك والمسلمين نصحاً

وبلغ من الرأء أن قدرت تركته بمليونين . وصلى عليه الرشيد عندما مات وأمر بدفنه في مقابر قریش حيث دفن من بعده ولده الأمين ثم زبيدة أم الأمين .

كان أبو يوسف من صغر جسمه يكاد يغرق في فراشه . سمعه سامع فقال : لو شاء الله أن يجعل العلم في جوف طير لفعل ! لكنه كان يحفظ خمسين أو ستين حديثاً في السماع الواحد ثم يقوم فيملئها على الناس ! . . .

أتيح لفقه أبي حنيفة على يد أبي يوسف ما يتاح للمذاهب السياسية أو الاجتماعية أو العلمية من النجاح إذ يهيء لها القدر رجالاً في دست الأحكام . وهي ظاهرة تولاهم المؤلفون الغربيون في السنوات الأخيرة بالعرض المستفيض . وبهذا جعل أبو يوسف من فقه أستاذه فقهياً رسمياً بالقضاء وبالإفتاء ، وبالتدوين ، وخاصة بتعيين أتباعه في كراسى القضاء . حتى صار الناس في بغداد يسمون مذهب أبي حنيفة (بمذهب السلطان) فظهر المذهب فيها بعد وفاة أبي حنيفة على المذاهب كافة . وعظمت تلك القوة — كما عبر أحد خصوم أبي حنيفة — (لأن العلم والسلطنة حصلاً معاً) :

أو كما قال ابن حزم : مذهبان انتشرا في بداية أمرهما بالرياسة والسلطان ، الحنفى بالعراق والمالكي بالأندلس .

أتاح أبو يوسف للفقه الحنفى لقاء جدد شبابه وأكسبه المناعة ، هو اللقاح العملى الذى يتجاوب مع أطوار الحياة ، بما علمه من اتصاله بالخلفاء الثلاثة ، وبفقهاء الأمصار ، وبعد أن قطعت الدولة أكبر أشواطها في الحضارة . وفرض أبو يوسف سلطانه في كل مكان حتى إنه ليجعل ابنه يوسف قاضياً على الجانب الغربى من بغداد وإماماً للحجيج عندما حج الرشيد وفي صحبته أبو يوسف .

كان شريك خصم أبي حنيفة يحج في نفس العام وسأل عن يصى بالناس ، فقالوا له يوسف بن أبي يوسف قال : الآن طاب الموت !

بل فرض سلطانه على الرشيد نفسه وبأله من سلطان على صاحب السلطان !

كان إذا حزبت الأمور فزعوا إليه فلا تقف أمامه المشكلات أو المستحيلات .
 زعموا أن زبيدة غاضبت هارون الرشيد - فحلف الرشيد عيناً بالطلاق
 ألا تبيت ليلتها في بلد يدخل في ولايته ، فلما سكنت عنه الغضب فعل الهوى
 أفاعيله في نفسه ، والتاريخ يذكر مبلغ ما شغفته حباً وشغفها ، فأظلمت الدنيا
 في عينيه ، والظلام في عين الرشيد هو العمى في أعين البلاط . . ! فاشتد
 الخطب وفدح الأمر ، وكلما مالت الشمس في الأفق ، ودنت حمرة الشفق ،
 سرت في أبهاء القصر رعدة الفرق ، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر .
 ودارت أعين الحاشية كالذي يغشي عليه من الموت وتصايحوا ألا أين نصر
 الله ؟ . .

ألا إن نصر الله قريب . إن فقيه البلاط بن رجال البلاط ! يا أبا يوسف
 أفتنا في أمير المؤمنين وزوج أمير المؤمنين !
 فليأت أبو يوسف بالحوارق . قال . . فلتبت زوج أمير المؤمنين بالمسجد
 فإنه لا ولاية لك يا أمير المؤمنين على المسجد . .

والله سبحانه وتعالى يقول : (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا) .
 ولما حج مع الرشيد أشار عليه أن يتقدم لإمامة المسلمين فعلى الرشيد
 ركعتين وسلم ، ونادى أبو يوسف : يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإن أمير
 المؤمنين مسافر ونحن قوم سفر . فنادى رجل من أهله مكة : يا أبا يوسف
 نحن أعلم منك ومن علمك ! فأجاب أبو يوسف : « لو كنت أعلم لما تكلمت
 في صلاتك ! » .

كانت هذه وحدها كافية لتبتهت الرجل . لكنه استمر يقول : نحن مهبط
 الوحي وجبلنا جبل الرحمة ومنزل الحكم والعلوم والبركات من السماء . قال أبو
 يوسف : « ولكن ما استقرت على جبلكم بل سالت إلينا في الشباب والأودية
 فاستقرت عندنا . كذلك فعل المطر » .

وسيطر صاحب الخليفة على الموقف في حضرة الخليفة . . !

أفلم يكن الرشيد على حق إذ يقول : « هاتوا لى مثله » !
 خصم إليه أمير المؤمنين الهادى فى بستان وكان ظاهر الأمر أن البستان له ،
 لكن الحق كان لخصمه ، قال الهادى لأبى يوسف : ما صنعت فى الأمر
 الذى نتنازع إليك فيه ؟

قال أبو يوسف : خصم أمير المؤمنين يسألنى أن أحلف أمير المؤمنين أن
 شهوده على حق ، قال الهادى : وترى ذلك ؟ قال كان ابن أبى ليلى يراه :
 قال الخليفة أرد البستان عليه . . . !

لكنه إذ يحتال ليرد الهادى بستان الرجل إليه لا يحتال من أجل من دونه :
 شهد الفضل بن الربيع وزير الخليفة عنده يوماً فرد شهادته فعاتبه الخليفة
 قائلاً : لم رددت شهادته ؟ قال : سمعته يقول أنا عبدك ، فإن كان ، صادقاً
 فلا شهادة للعبد . وإن كان كاذباً لكذلك .

بل إنه ليحلف الرشيد فى قضية رأى أن يحلف فيها الرشيد ! مع ما كان
 من تسامى السروات ووجوه الدولة عن توجيه الخصومات إليهم .

جلس الهادى يوماً للمظالم وبحواره عمارة بن حمزة ، فوثب رجل وتظلم من
 عمارة فى شأن ضيعة معروفة بالكوفة ثمنها مليون درهم — ادعى أنه غصبها منه .
 قال الخليفة لعمارة ما تقول فيما ادعاه الرجل ؟ قال : إن كانت الضيعة لى فهمى
 له ، وإن كانت له فهمى له ! ووثب وانصرف !!

وقالوا : كتبت أم جعفر إلى أبى يوسف تقول ما ترى فى كذا ؟ وأحب
 الأشياء إلى أن يكون الحق فيه كذا . فأفتاها بما صادف هواها ، فبعثت إليه
 بحق فيه فضة ، فيه حقائق مطبقات ، فى كل واحدة منها لون من الطيب ، وفى
 جام دراهم وسطها جام فيه دنانير : فقال له جلساؤه : قال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم : « من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها » ، قال أبو يوسف :
 « ذاك حين كانت هدايا الناس التمر والبن » .

ولو جاءت الهدايا أبا حنيفة لتخرج عن قبولها أو لكافأ المهدي بأضعافها .

وفي سنة ١٨٣ مات أبو يوسف وسمعه السامع يوم مات يقول : « اللهم إنك تعلم أنني لم أجر في حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تعمداً ، وقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم . كلما أشكل عليّ جعلت أبا حنيفة بيني وبينك ، وكان عندي والله ممن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه » وعرف الناس وصيته ١٠٠,٠٠٠ مائة ألف لأهل مكة ، و ١٠٠,٠٠٠ مائة ألف لأهل المدينة ، و ١٠٠,٠٠٠ لأهل بغداد و ١٠٠,٠٠٠ للبلد الذي جعل صبي القصار أستاذاً للرشد يهب مئات الآلاف ! نغني به الكوفة .

أما محمد بن الحسن الشيباني فلم يكن من الخلفاء كأبي يوسف ومع أنه تتلمذ على أبي يوسف بعد وفاة أستاذهما ، فقد كانت بينه وبينه وحشة في آخر أيام أبي يوسف حتى وفاته . ولقضاء الرقة للرشد ثم عزل ثم عاد الرشد فاستقصاه واستقصاه .

توفر محمد على التدوين فجمع فقه أبي حنيفة وأبي يوسف وفقهه هو في كتب هي السجل التاريخي للمذهب ، أما الكتب المنسوبة إلى أبي حنيفة « العالم والمتعلم » وكتابه لعثمان البتي عن الإرجاء « والفقه الأكبر » ووصية أبي حنيفة إن صحت ، فهي تدور حول العقيدة .

أما كتب أبي يوسف فقد قيل إنها بلغت أربعين كتاباً لم يصل أكثرها إلينا ، وبحسبه شاهداً على عبقرية كتابه « الخراج » الذي كتبه للرشد يبصره بالحكم جواباً لطلبه .

وأما كتب محمد فهي المعروفة بظاهر الرواية « السير الكبير والسير الصغير » في فقه الحرب « والجامع الكبير » وهو في التفسير والأصول « والجامع الصغير » ، وفيه نحو ١٥٣٢ مسألة ، والمبسوط أو « الأصل » وسمى كذلك لسبقه الكتب الأخرى في التصنيف والزيادات وزيادات الزيادات والكيسانيات والرد على أهل المدينة « وهو كتاب رواه الشافعي » وقد قرئ أكثرها على أبي يوسف .

وإذا كان الفقه الحنفي قد دان به الثلثان من أهل الإسلام ، وغمر العراق وفارس والهند والصين وتركيا وشرقي أوروبا وبقاعاً من روسيا وأصبح مذهباً رسمياً

في مصر ، أو كانت نهضة التدوين وتبويب الموسوعات قد دبت فيها الحياة ، فإن لهذه الكتب الصغرى في عددها تلك اليد الكبرى في آثارها .

إن المبسوط وحده يقع في ستة أجزاء كل جزء ٥٠٠ صفحة من ذوات القطع الكبير . . ١ كان الفقه بحاجة إلى الصون فحماه محمد بذلك السور المتبع الذي تألف حجارته من اختلاط أحرف الهجاء بالورق :

كان عمل أبي يوسف لخدمة الفقه بالوظيفة لازماً للفقه عند النشأة الأولى ليأثقف العلم مع العصر ، ومع الواقع ، ولتحمله إلى الدنيا اليد السحرية المسماة بيد السلطان ، وأما عمل محمد فكان لازماً ليوجه الفقه في طريق الخلود فتراه العصور جميعاً .

ولما عين محمد في القضاء شاء زميله وأستاذه « قاضي القضاة » أن يكون في الرقة بعيداً عن بغداد ، فأدناه من الخلود من حيث أقصاه عن السلطان . إذ هياً له نجاة من زحمة العاصمة ولحاجة الحكام ، فتفرغ للعلم حتى عهد في أعماله الشخصية إلى وكيل ليضطلع هو بأمانة التأليف ، وكان يحبل أهله على الوكيل ويقول : « لا تسألوني عن حاجة من الحوائج فإن فيها شغل قلبي وخذوا ما بدالكم عن وكيلى فإنه أفرغ لقلبي » .

ومن قبل محمد شغل ابن شهاب الزهري بجمع الأحاديث عن أهله حتى قالت زوجته عن مؤلفاته : « هذه الكتب أشد على من ثلاث ضرائر » .

رحل محمد إلى المدينة في حكم المهدي (سنة ١٥٨ إلى سنة ١٦٩) ليستقى العلم من مالك بن أنس وروى عنه « الموطأ » وتعتبر روايته للموطأ من أجود رواياته . واختلط بالكسائي في عهد الرشيد فعلمه الكسائي اللغة وعلم الكسائي الفقه .

قالوا : جلس الكسائي يوماً يداعب الرشيد فدخل عليهما قاضي القضاة فقال للرشيد هذا الكوفي قد استفرغك وغلب عليك : فقال الرشيد : يا أبا يوسف إنه ليأتيني بأشياء يشتمل عليها قلبي : لكن جواب الرشيد عن الكسائي لا يشفيه ، ولا يكفيه ، فأقبل على أبي يوسف يقول : يا أبا يوسف هل لك

في مسألة ؟ فقال : « نحو أم فقه » ؟ فقال : بل فقه ! فضحك الرشيد حتى فحصى برجله وقال للكسائي : تلقى على أبي يوسف فقهاً !! قال الكسائي : نعم . يا أبا يوسف ما تقول لرجل قال لامرأته أنت طالق أن فتحت الدار (وفتح الهمزة في أن) قال أبو يوسف إذا دخلت طلقت : قال أخطأت يا أبا يوسف فضحك الرشيد وتساءل كيف الصواب ؟ قال : الكسائي : إن قال أن وجب الفعل ووقع الطلاق وإن قال إن فلم يجب ولم يقع الطلاق !

قالوا : فكان أبو يوسف بعدها لا يدع أن يأتي الكسائي إلى الرشيد . ولما حشر الشافعي إلى الرشيد لمحاكمته بتهمة التشيع عمل محمد في إنقاذه . وتوثقت بينهما عرى الود فبهر ليه .

وقف رجل على الشافعي فسأله عن مسألة فأجابه فقال له الرجل يا أبا عبد الله خالفك الفقهاء قال : « وهل رأيت فقيهاً قط إلا أن تكون رأيت محمد ابن الحسن ! فإنه كان يملأ العين والقلب : وما رأيت مبداً قط أذكى من محمد بن الحسن) وقال فيه : « كان محمد إذا أخذ في المسألة كأنه قرآن يتزل . لا يقدم حرفاً ولا يؤخر » وقال : « ليس لأحد على منة في العلم ما لمحمد على » .

وكان يجيئه وقد ركب محمد فيرجع محمد إلى منزله ويخلو به إلى آخر الليل . قرأ الشافعي كتب محمد ، بل حمل منها وقربيعر كما قال . فتعلم منها فقه أبي حنيفة وفقه الأقدمين . فما هو ذا محمد تلميذ أبي حنيفة ينزل من مالك وينهل منه الشافعي الذي علم ابن حنبل ، فتتلاقى عنده المذاهب الفقهية الأربعة ، ويروى علومه فيرتوي منها الأئمة والمتنقهاء والناس جميعاً .

روى الملك عيسى بن الملك العادل الأيوبي أن عالماً يهودياً كان بالبصرة فطلب كتاب الجامع الكبير لمحمد ، فلما وقف عليه قال : من بحث عن دينه مثل هذا ودقق هذه المسائل ثم لم يدعها لنفسه وإنما نسبها لنبي أشهد أنه على حق . فأسلم .

قال الملك : إن هذا يعد من بركات محمد رحمه الله بما صنعه . ومسانله معروفة . فإن من أراد أن يقرأه ويفهمه يحتاج أن يكون عالماً بارعاً بستة علوم : أولها الكتاب

العزیز ، والآثار والفقه والنحو واللغة والحساب ، ومن لم يكن مجيداً لهذه العلوم لم يعرفه إلا تقليداً .

أقبل الرشيد يوماً على جماعة فيهم محمد بن الحسن فقاموا إلا محمداً ، ومضى الرشيد لطيفته ثم جاء الآذن يقول : محمد بن الحسن . فوجبت القلوب ، فلما كان بين يديه سأله لماذا انفرد بالجلوس عندما قدم عليهم فقال : « كرهت أن أخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها . إنك أهلتني للعلم فكرهت أن أخرج منه إلى طبقة الخدمة التي هي خارجة منه ، وإن ابن عمك صلى الله عليه وسلم قال : (من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار) وإنما أراد بذلك العلماء . . . » قال الرشيد صدقت يا محمد .

اعتقد محمد أن العالم لا يقف للخليفة ويا لها من عقيدة ! لكن الأسمى من العقيدة هو العمل بها ولا سيما في حضرة الرشيد وضد الرشيد . . . وعلى أعين الناس . ومن حقه أن يقف الناس له ولو كانوا هم العلماء . . . !

لقد كان الرشيد حفيظاً بالعلم ومن حقه أن يغتفل به العلم .

بلى : كان رضى الرشيد بموقف محمد كعالم ، وبعدم يقوفه كفرد من رعاياه ، يعدل تماماً موقف محمد من الرشيد ، كلاهما كرم العلم وكلاهما يستحق التكريم . وكان الرشيد صادق الرضا عن محمد فلما علم بكتابه « السير » بعث الأمراء — أولاده — لسماع دروسه فيه .

ولما خرج يحيى بن عبد الله العلوي على الرشيد ثم تصالحا على (عهد) بالأمان أخذه الفضل بن يحيى البرمكي من الرشيد سنة ١٨٦ واستنزل به يحيى من معقله ، وتوشجت المودة بين يحيى والرشيد زماناً حتى رفع السعاة عن يحيى ما يريب ، فسئى به وضاق به ذرعاً ثم حبسه وهم به يريد قتله ، لكن العهد كان مشلولاً ، و« المسلمون عند شروطهم » كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام ، فجاء الرشيد بالعهد يقلبه لعله يجد مخرجاً ، ودعا محمداً وأقرأه العهد وسأله هل هو صحيح ؟ فأجاب محمد : صحيح . وراح الرشيد يحادله وهو لا يتحول !

بل قال محمد : ما تصنع بالأمان ، لو كان محارباً ثم ولى كان آمناً !

وطالب الرشيد فتيهاً آخر هو أبو البخري فقرأ الرجل العهد ، وأفتى بنقض العهد ، بل أقبل يعدد وجوه النقض ، وكانت نهاية فتواه ، وإن شئت فقل غاية فتواه ، أن صدر نطق الرشيد : بلى وأنت قاضى القضاة !

ذلك أبو البخري الذى اختصه ابن حنبل بوصف أنه « كذاب » .

رأى الرشيد وهو يطير الحمام فقال الرشيد : هل تحفظ فى هذا شيئاً ؟ قال :

حدثنى . . عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يطير الحمام . . !

وقف محمد هنا فى وجه الخليفة لأنه ليس ممن ينقض العهد . . !

ولم يقف هناك إذ جاء الخليفة لأنه يحمل كرامة العلماء . . وهناك رضى الرشيد لأنه أثر كرامة العلم على مظاهر الدنيا ، وهنا لم يرض لأن مصلحة الدولة كانت ضد العلم وضد العهد ، وكان هارون صاحب دولة ، فرأى من أجل دولته ما رأى . صنع الرشيد ذلك مع أنه كان يبعث إلى ولاته يأمرهم بتقوى الله وبالرجوع إلى الفقهاء ، وكان إنفاقه على العلماء إغداقاً ، يعهد بأرلاده إليهم ، بل كان يخدمهم : وفد عليه أبو معاوية الضرير وجمي بالطعام فأكل بين يديه . وصب الرشيد الماء على يديه حتى غسلهما . وقال : أتدرى من يصب الماء عليك ؟ قال : لا . قال : أمير المؤمنين . قال أبو معاوية : « أكرمك الله كما أكرمت العلم ورفع درجتك يا أمير المؤمنين فى الآخرة » .

وفى سنة ١٨٩ مات محمد بالرى وهو فى صحبة الرشيد ومات معه صديقه الكسائى فى نفس الرحلة . ولما دفنا قال الرشيد : « دفن اليوم اللغة والفقه » .

• • •

هذان هما أبو يوسف ومحمد صاحباً أبى حنيفة يجرى اسمهما فى التاريخ على أنهما « الصاحبان » .

أما الصاحب الثالث فهو زفر بن الهذيل كان مقدماً فى مجلس الإمام وبقي طيلة عمره مشتغلاً بالعلم ، ولما عرض القضاء عليه أبى فأكرهه على القضاء واختفى ، وهدمت داره فخرج ، فأصلحها ثم أكره وهدمت داره ولم يقبل . ولم يخض الغمرات إلى الدنيا فلم يتعرض إلى ما تعرض له الصاحبان « أبو يوسف ومحمد » .

كان أقيس الحنفية ، وكان أكبر التلاميذ سنًا فرأس الحلقة لما هوى النجم ولما مات في الثامنة والأربعين من عمره خلفه في رئاسة الحلقة أبو يوسف .

شك رجل في طلاق زوجته فسأل شريكًا القاضى فقال : طلقها ثم راجعها .
وسأل الثورى فقال : إن كنت قد طلقته فقد راجعتها ، ثم جاء إلى زفر فقال :
هى امرأتك حتى تتيقن من طلاقها .

ذلك بأن من الأصول التى وضعها أستاذة أن الشك لا يزيل اليقين كمن توضأ
ثم شك فى الحدث فهو على وضوئه .

وعرض الرجل على أبى حنيفة هذه الأقوال فقال : أما الثورى فقد أتاك
بالورع ، وأما زفر فأتاك بعين الفقه ، وأما شريك فهو كرجل . قلت : لا أدرى
أصاب ثوبى بول أم لا . فقال : بل على ثوبك فاغسله !

فلم يغفر شريك ذلك وأشباهه لأبى حنيفة حتى بعد أن مات . .

شهد النضر بن إسماعيل وحماد بن أبى حنيفة لدى شريك ، فرد شهادتهما
وراح الناس يستفسرونه عن رد شهادة النضر . فقال : لأنه يبيع الصلاة « إذ كان
إمامًا فى المسجد يتقاضى فى الشهر دينارين » فقال له النضر ، وأنت تبيع القضاء :
« إذ كان قاضيًا بأجر » فأجابه شريك فإذا شهدت عندك فلا تقبل شهادتى ! !

وجمع حماد جماعة وأتوا شريكًا فلما بصروهم قال : وراءك يا حماد . .
لست كالنضر . أنت وأبوك تزعمان أن إيمان شر أهل الأرض كإيمان خير أهل
السماء . .

كان زفر يغربل الأحاديث غربلة ، ويأتى بالليل من غير حشو فإذا ناظر
أبا يوسف فكأنه يأخذ بحلقومه . كان يناظره مرة وهو مستند إلى أسطوانة المسجد
منتصبًا وكان أبو يوسف كثير الحركة أما هو فكان لا يتحرك بل يقول : هذه أبواب
كثيرة أركض فى أيها شئت . وانتهى الأمر بأبى يوسف إلى أن جلس بين يديه .

ولا تزوج دعا أبا حنيفة إلى عرسه ، والتمس منه أن يخطب فقال عنه الإمام
الأعظم : « هذا الإمام من أئمة المسلمين فى حسيه وشرفه وعلمه » .

وفي سنة ١٥٨ كان أسبق زملائه إلى لقاء إمامهم في الرفيق الأعلى .

أما الحسن بن زياد اللؤلؤي فقد تتلمذ بعد وفاة الإمام على أبي يوسف ومحمد واقتدى بمحمد فكتب : « المجرد لأبي حنيفة ، وأدب القاضي . والنفقات والفرائض والوصايا . والخصال » وعمل في القضاء . وفتحت عليه أبواب السماء برزق منهجر فأضحى — وهو الذي كان يأمره أبوه أن يكف عن مجلس أبي حنيفة ليمير بناته — أضحى له ممالك يكسوهن مما يكسوه بنفسه .

كان يخطي الله في فتواه . أفق رجل فتوى تبين خطأها بعد انصرافه ولم يكن معروفاً لديه فاكثر متادياً يقول : إن الحسن أخطأ في تلك المسألة حتى عاد إليه الرجل فأعلمه بخطئه ورد الرجل إلى الحق .

وكان إذا جلس للحكم ذهب عنه التوفيق فإذا قام من مجلس القضاء عاد إلى ما كان عليه من الحفظ ! ! فاستعنى من القضاء .

وفي سنة ٢٠٤ ترك الدنيا .

وأما حماد بن أبي حنيفة فقد تولى قضاء الكوفة ببغداد كلها بالبصرة ، وتخرج ابنه إسماعيل عليه وعلى أبي يوسف وعلى الحسن وتولى القضاء بالجانب الشرقي ببغداد وبالبصرة والرقعة .

وتخلى يوسف بن خالد السمتي للعبادة .

أما الأخوان مندل وحيان فقد كان لهما شأن . أشخصهما المهدي إليه من الكوفة مرة فلما دخلا عليه ناداهما : أيكما مندل — وكان أصغر وأشهر — قال مندل موجهاً نظراً الخليفة : هذا حبان .

ويحيى بن زكريا مات قاضياً على المدائن للرشد .

وتولى القاسم بن معن قضاء الكوفة بعد شريك حسبة لله بغير أجر ، ذكروا من مناقبه أنه كان أحد الذين قال لهم أبو حنيفة : أنتم مسارقا بوجلاء حزني . . . وتولى حفص بن غياث للرشد قضاء الكوفة ثلاثة عشر عاماً وقضاء بغداد عامين

فحبس المرزبان وكيل زبيدة في دين !

كان جالساً للقضاء فجاءه رسول الخليفة يدعوه فقال : لا حتى يفرغ الخصوم .
فلما فرغوا لي دعوته .

ولما عينه أبو يوسف في قضاء الكوفة بعث إلى أهلها يقول : يا أهل الكوفة
انشروا دفتراً لتكتبوا نواذر قضاياه .

وأما عبد الله بن المبارك فكان إماماً في الفقه وبطلا في المعارك . كانت أمه خوارزمية ، وأبوه تركياً ، وكان من أكثر التلاميذ رواية للأستاذ . ولما مات أمر الرشيد وزيره بأن يأذن للناس بأن يعزوا فيه أمير المؤمنين .

وهذا أسد بن عمر البجلي : يروى عنه الإمام أحمد بن حنبل . تولى القضاء
للرشيد ببغداد وواسط . . وقيل تزوج بنت الرشيد .

وتولى على بن مسهر قضاء الكوفة .

وهذا داود الطائي أرفع الناس صوتاً في الحلقة . يتمتع إلى العبادة ويخرج من الدنيا في حياته ! . . أرسلت إليه بدرة فيها عشرة آلاف درهم يستعين بها على الدهر فأعادها لمصدرها ، وردّها المرسل مع بدرة تماثلها وغلّامين قال لهما : إن قبل البيرتين فأنتما حيران . فذهبوا إليه قالا : إن في قبورك عتق رقابنا . قال : إني أخاف أن يكون في قبولها وهق رقبتى في النار . رداها إليه وقولا له يردها على من أخذها منه أولى من أن يعطيني أنا . . .

أولئك تلاميذه من تلاميذه الذين تحدث عنهم بما رواه حفيده إسماعيل بن حماد : « أصحابنا ستة وثلاثون رجلا . ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء ، وفيهم ستة يصلحون للفتوى ، وفيهم اثنان يصلحان يؤدبان القضاة وأصحاب الفتوى وأشار إلى أبي يوسف وزفر » .

كم بذل الفقهاء للترجيح بين أقوالهم المختلفة في مذهبهم ! وفي سبيل وضع نظام الأسبقية ضاع جهد كثير فقبل وقيل :

وقيل بالتخير في فتواه إن خالف الإمام صاحباه

وقيل من دليله أقوى ربح . . وإذا لمفت ذى اجتهاد الأصح

هؤلاء هم أصحاب أبي حنيفة وتلاميذه . جاءوا إلى الحلقة غفلا مغمورين .
منهم الحفاة والعراة : ليصيروا من بعد قضاة وقضاة للقضاة ، بل عمداً للفقه
الإسلامي ، ملأ أفئدتهم يقين الرسالة التي نقلها إليهم الأستاذ العظيم فأضحى
ما حملوه منها عنصراً أساسياً في نهضة الدولة وصلاح الدنيا . بما فيه من طابع
عملي وعمق فكري . حتى قال عنهم عمرو بن بحر الجاحظ بعد قرن من الزمان وهو
يتحدث عن اعتزاز المتعلمين بالعلم : «.. قال عمر: تفقهوا قبل أن تسودوا، وقد نجد الرجل
يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاماً وهو لا يعد فقيهاً ولا يجعل
قاضياً وما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة ، ويحفظ كتب الشروط في مقدار
سنة أو سنتين ، حتى تمر يابه فتظن أنه من بعض العمال . وبالخرى ألا يمر عليه من
الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان . . »
كانوا كأطيار الفجر يبشرون بالذور الذي سيحيى . . يدركون وهم بجلاء
أستاذهم أنهم ارتفعوا عن مستوى الناس ، ويحسنون وهم معه ما نسمه نحن الآن معهم
وما كان يستشعره (ميشيل أنجلو) عندما كان يقرأ هومبروس فيقول : « كلما قرأت
هومبروس نظرت إلى نفسي لأتحقق مما إذا كنت قد ارتفعت عشرين قدماً فوق
الثرى . . ! » .